

**الحدائثة ووضع المرأة الفلسطينية:**  
ملاحظات على هامش ورقة «القضايا الداخلية» في «وثيقة حيفا»  
ليناميعاري

في  
قراءات مرافقة لـ «وثيقة حيفا»  
تحرير:  
نديم روحانا



مدي الكرمل  
Mada | مدي | Madaniya  
الكرمل

مدي الكرمل  
المركز العربي للدراسات الاجتماعية التطبيقية

w w w . m a d a - r e s e a r c h . o r g

# الحدائثة ووضع المرأة الفلسطينية:

ملاحظات على هامش ورقة «القضايا الداخلية» في وثيقة حيفا

## ليناميعاري

الإشارة هنا أنّ تداول مفاهيم محدّدة في سياق مختلف عن سياق تطوّرها يعتمد على افتراض أنّ هذه المفاهيم عالميّة ومطلقة ومتحرّرة من الواقع المحليّ لظروف تطوّرها، وأنّ انتقالها من سياق إلى آخر يحافظ على نفس الدلالات والممارسات التي تحملها وتفرزها هذه المفاهيم. من جهة أخرى، في الإمكان الادّعاء أنّ استخدام هذه المفاهيم في غير سياقها، بصرف النظر عن سياق تطوّرها، يحزرها من قيود تطوّرها والدلالات التي اكتسبتها فيه، ويكسبها دلالات سياقيّة ومحليّة. اعتقد أنّه في هذه الحالة يقع على عاتق مستخدم هذه المفاهيم تبرير ترجمتها واستخدامها وشرح القصد المختلف من هذا الاستخدام، وكذلك إظهار الدلالات السياقيّة الجديدة التي اكتسبتها هذه المفاهيم خلال عمليّة تنقلها وتفاعلها مع الواقع الجديد.

## حول تطوّر المفاهيم ونقدها

إنّ تحليل وضع المجتمع الفلسطيني، بإعادة أسباب واقع وموقع المرأة الدونيّ فيه إلى كون المجتمع يخضع لبنى اجتماعيّة تقليديّة تقمع الحرّيات الفرديّة، ينطوي على افتراض مؤداه أنّ تحوّل بنية المجتمع من بنية تقليديّة إلى بنية حديثة يكفل تحسين وضع المرأة، أو - في أقلّ تقدير - يساهم في هذا التحسين. يقوم هذا الادّعاء بتداول مفهوميّ التقليد والحدائثة دون الخوض في دلالات هذه المفاهيم والقصد منها.

في العديد من النقاشات الدائرة بين أوساط المهتمّين ببنية المجتمع الفلسطيني، الذي شكّل بعد احتلال عام 1948، كتجمّع ذي خصائص تميّزه عن التجمّعات الفلسطينية الأخرى، وعلى وجه التحديد في النقاشات الدائرة حول واقع وموقع المرأة فيه، كثيرًا ما يعاد تداول مفاهيم تأخذ - في الغالب - شكل ثنائيات متضادّة (كالتقليد مقابل الحدائثة، والفرديّة مقابل الجماعيّة، أو حقوق الفرد مقابل الولاء للجماعة، والحيّز الخاصّ مقابل الحيّز العامّ)<sup>1</sup>. كذلك، في الغالب يجري دمج هذه المفاهيم في ادّعاء واحد يقوم على علاقة تبادليّة بينها، ويقضي الادّعاء أنّ البنية التقليديّة للمجتمع الفلسطيني تقمع الحرّيات الفرديّة عامّة، وترسخ موقع المرأة الدونيّ ومكانها في المجال الخاصّ.

يسلّط النصّ التالي الضوء على بعض المفاهيم المتداولة أعلاه، وعلى وجه التحديد مفهوم الحدائثة، في محاولة لإثارة الأسئلة حول معانيها. لإنجاز هذه المهمة، يقوم النصّ بتعقّب موجز وجزئيّ لنشأة وتطوّر ونقد مفهوم الحدائثة في السياق الخاصّ الذي تطوّر فيه، وللکيفيّة التي انتقل عبرها هذا المفهوم من سياق تاريخي-اقتصادي-ثقافيّ معيّن إلى سياق آخر، وماهيّة التحوّلات والتأثيرات التي حدثت عليه خلال عمليّة الانتقال هذه، أو بالأحرى الكيفيّة التي تمفصلت فيها الممارسات العمليّة لمفهوم الحدائثة في السياق الاستعماريّ بأشكاله القديمة والحديثة، والكيفيّة التي فيها انعكست في الواقع المعيش. لا بدّ من

1. نجد بعض هذه الثنائيات في الأدبيّات حول المجتمع العربيّ عمومًا ووضع المرأة فيه (انظر/ي على سبيل المثال: ثريا التركي، هدى زريق (1995). «تغيّر القيم في العائلة العربيّة»، المستقبل العربيّ، السنة الثامنة عشرة، العدد 200، ص. 76-116).

مقدرات المجتمعات التي صوّرت على أنّها مجتمعات تقليدية بحاجة إلى التحديث.

بخلاف المجتمعات التقليدية التي توصف بأنها ترزح تحت ثقل العادات والتقاليد غير القابلة للتغيير والرافضة لروح التقدم، تُعرض المجتمعات الحديثة في إطار كونها تتمتع بمنجزات الحداثة والتنوير. في الغالب، يرتبط مفهوم الحداثة بعدة دلالات: زمنية ومكانية ومضمونية؛ فبالمفهوم الزمني يُدرك -في المعتاد- مصطلح الحديث بأنّه يميّز فترة زمنية مقارنة بفترة زمنية سابقة جرت العادة على نعتها بالقديم. وفي هذا المنطق يُدرك الزمن بصورة خطيّة، بمعنى أنّ الزمن يتقدّم بصورة خطيّة، حيث تقوم كل لحظة تمرّ بمحو ما قبلها. أمّا مكانياً، فترتبط الحداثة بالمركز الأوروبي، ولاحقاً الأمريكي، أي ما يسمّى بالغرب. في السياق الأوروبي، في الغالب يجري الربط بين الحداثة وعصر التنوير الذي بدأ في منتصف القرن الثامن عشر (ثمّة آخرون يربطون الحداثة بعصر النهضة الذي بدأ في القرن الرابع عشر). بالرغم من ذلك، هناك خلاف حول تحديد بدء الحداثة. يشير هابرماس (Habermas, 1981)، على سبيل المثال، إلى أنّ كلمة «حديث» استُخدمت للمرّة الأولى في أواخر القرن الخامس، لتبيان الفرق بين الحاضر الذي أصبح مسيحياً بصورة رسميّة، والماضي الروماني الوثني. وبرأيه، إنّ للمصطلح «حديث» تاريخاً طويلاً، وإنّ المصطلح يعكس وعي مرحلة بارتباطها بماضٍ قديم بغية إدراك هذه المرحلة كنتيجة للتحوّل من القديم إلى الجديد.

من حيث مضمون الحداثة، نجد أنّ هناك مجالين مختلفين لتعريف جوانب مختلفة من الحداثة، ويجري ذلك من خلال استخدام المصطلحين «modernism» و«modernity». يرتبط المفهوم الأوّل بمجالات الأدب والفن؛ أمّا الثاني فبمجال الفلسفة والسياسة والأخلاق، وهو أسبق زمنياً من المفهوم الأوّل بل ويؤسّس له (Klages, 2003). من المهمّ الإشارة إلى أنّ مفهوم الحداثة -بمجاله- ليس منفصلاً عن الواقع الاقتصادي وأنماط

في محاولة لفهم القصد من مفهوم المجتمع التقليديّ، سأستعين بنصّ مبيمي حول تكوينات ما بعد الاستعمار في أفريقيا (Mbembe, 2001). في هذا النصّ، يحدّد مبيمي بعض الميزات التي يُعتقد أنّها تمثل المجتمعات التقليدية. أولى هذه الميزات تكمن في كون الأشياء والمؤسسات قائمة في المجتمعات التقليدية لمجرد وجودها، دون الحاجة إلى تبرير هذا الوجود أو إجراء جدل معه، فمجرد وجود الأشياء كافٍ لإعطائها شرعيّة. إضافة إلى ذلك، تتميز المجتمعات التقليدية بصفة العشوائية، حيث بخلاف المجتمعات الغربية القائمة على العقلانية والمنطق، تقوم المجتمعات التقليدية على أسس الأسطورة والتلفيق (وبالإمكان إضافة الدين) التي تُعتبر المصادر الأساسية لمفهومَي النظام والزمن. ونتيجة كون المجتمعات التقليدية تتحرّك بفعل قوى التقاليد والأعراف، فإنّها تقاوم التغيير، وبالتالي لا مجال للتقدّم في تلك المجتمعات التي لا تتغيّر إلاّ تحت وطأة الضرورة، وعلى نحو غير منتظم يُفضي إلى الفوضى. وأخيراً، تتميز المجتمعات التقليدية بغياب مفهوم الفرد، هذا المفهوم الذي يُعتبر إبداعاً غربياً.

هناك من يفسّر هذه الطريقة في قراءة العالم، وفي تمثيل المجتمعات التقليدية على هذا النحو، في إطار هوس الغرب في تعريف ذاته وهويّته الذاتية كمختلفة عن الآخر (De Certeau, 1988) أو مناقضة له، وهناك من يفسّرها في إطار انشغال الحداثة في بناء ثنائيّة المنطق واللا منطق أو الجنون (Foucault, 1967). أمّا بعض الآخرين، فيفسّرون تعريف المجتمعات التقليدية على هذا النحو، في إطار اللغة ومنظومة التصنيف التي تعتبر أنّ المختلف عنّي ليس مجرد «مختلف عنّي» بل هو «ليس موجوداً أصلاً» (Mbembe, 2001). من ناحية أخرى، أعتقد أنّه من المهمّ التنبّه إلى أنّ بناء ثنائيّة التقليد/الحداثة لا يقع في إطار منظومة اللغة والتمثيلات فقط، بل إنّهُ يؤثّر في الواقع تأثيراً مادّياً وملموساً، كما انعكس ذلك في مرحلتي الاستعمار القديم والحديث واستغلال

السيكولوجية والعاطفية ولرغبات الناس وتخيّلاتها دورٌ مهمٌ في تشكيل الهويّات الجمعيّة الحاضرة في أساس الحركات المنظّمة، ومن المهمّ تحليل هذه الأبعاد، بالإضافة إلى المصالح كأبعاد مؤسّسة لأيّ فعل سياسيّ منظّم.

بالإضافة إلى مفاهيم العقلانيّة والمنطق والنظام والتقدّم والموضوعيّة (أي المفاهيم المؤسّسة للحدائنة)، يضيف ليوتارد مفهوم الشموليّة كأساس آخر من أسس الحدائنة، حيث يوازني بين نظام الحدائنة وفكرة الشموليّة (Lyotard, 1984). يدعي ليوتارد أنّ منظومة الشموليّة والنظام التي تقع في أساس المجتمعات الحديثة يجري ضمانها من خلال الروايات الكبرى أو الروايات الشموليّة (grand narratives)، وهي روايات يقصّها المجتمع حول ممارساته ومعتقداته. يشير ليوتارد إلى أنّ كلّ جوانب المجتمعات الحديثة – بما فيها العلوم كالشكل الأولي للمعرفة – تعتمد على الروايات الشموليّة. بدأ تصبح ما بعد الحدائنة، برأيه، نقد الروايات الشموليّة التي تخفي التناقضات وعدم الاستقرار الجوهرية في التنظيمات والممارسات الاجتماعيّة. لذا، إنّ ما بعد الحدائنة تفضّل الروايات العينيّة التي تمثّل أحداثاً محلّيّة في سياق محدّد، ولا تدعي العالميّة أو الحقيقة أو العقلانيّة. في المجتمعات الحديثة، تُعتبر المعرفة مرادفة للعلوم ومناقضة للرواية، وبخلاف العلوم تُعتبر الرواية متخلّفة وغير عقلانيّة يتميّز بها الأطفال والنساء والمثقفون وغير المثزّنين عقلياً. لهذا، نجد الكثير من المنظرين النسويّين منشدين إلى أفكار ما بعد الحدائنة، ويقومون بإعادة النساء إلى مسرح الأحداث من خلال رواية قصصهنّ وتاريخهنّ، في محاولة لإعطاء الروايات التي تدور حول النساء شرعيّة، ولأهمّيّة اختلافات النوع الاجتماعيّ في صياغة الحياة الاجتماعيّة وتنظيمها.

تتأزّر ميزات الحدائنة المذكورة أعلاه لتفضي إلى إدراك الغرب والحدائنة والعقلانيّة كثنائيّ عضويّ لا ينفصل، بحيث يقوم التكوين الحدائنيّ والعقلانيّ بتمييز الغرب عن سائر مناطق العالم. ونضيف هنا

الإنتاج المهيمنة. في هذا الصدد، يعتبر جيمسون الحدائنة، وكذلك ما بعد الحدائنة، تشكيلات ثقافيّة مرافقة لتطوّر مراحل مختلفة من الرأسماليّة (Lyotard, 1984). فمرحلة رأسماليّة السوق، التي تطوّرت في القرن الثامن عشر في أوروبا والولايات المتحدة، وميّزتها تطوّرات تكنولوجيّة محدّدة، رافقتها ممارسات ثقافيّة شملت الفنّ والأدب وتميّزت بالواقعيّة. أمّا مرحلة الرأسماليّة الاحتكاريّة، التي تطوّرت في نهايات القرن التاسع عشر، فقد رافقتها تشكيلات ثقافيّة ميّزت مرحلة الحدائنة. وأمّا مرحلة الرأسماليّة المتأخّرة، أو رأسماليّة الاستهلاك، فتميّزت بتطوّر التكنولوجيا الإلكترونيّة والذريّة، وقد رافقتها تشكيلات ثقافيّة ارتبطت بمرحلة ما بعد الحدائنة.

في ما يتعلّق بمفهوم الحدائنة المرتبط بمجالات الفلسفة والسياسة والأخلاق، هناك علاقة بين مفهومي الحدائنة والتنوير، وتحديدًا ترتبط الحدائنة عضوياً بمفهومَي النظام والعقلانيّة، والمقصود أنّ خلق المزيد من العقلانيّة يؤدي إلى خلق المزيد من النظام. فالمجتمعات الحديثة تعتمد على النظام، وتعادي كلّ ما له علاقة بالفوضى. وفي سياق التركيز على النظام، تبنى ثنائيّة النظام / الفوضى لكي يجري تأكيد أولويّة النظام. تحتاج المجتمعات الحديثة إلى بناء تمثيلات للفوضى، وهذه التمثيلات تصبح الآخر الذي يرتبط بثنائيّات عديدة، وبالتالي يصبح ما هو ليس أبيض، وما ليس ذكراً، وما ليس عقلانياً جزءاً من الفوضى، وينبغي إقصاؤه من المجتمع الحديث المنظّم العقلانيّ (Jameson, 1991).

شكّلت العقلانيّة كذلك حجر الأساس في الفكر السياسيّ الليبراليّ، حيث تقوم العقلانيّة الليبراليّة على إنكار الأبعاد العاطفيّة والرغبات الإنسانيّة الناتجة عن التماثلات الجمعيّة، وتعتقد بأنّ هذه الرغبات سوف تختفي مع تطوّر الفردانيّة والعقلانيّة. ترى موف أنّ هذا الفهم قاصر عن إدراك التحركات الجمعيّة، بما فيها ظاهرة الوطنيّة أو القوميّة (Mausse, 2005). ففي سبيل فهم الظواهر الأخيرة، من المهمّ أخذ رغبات الناس وخيالاتها كجزء من المجال السياسيّ. فلأبعاد

هذا وقد وُجِهَ النقد كذلك للإطار المكاني والزمني للحادثة. وفي إطار النقد لموقع وفضاء الحادثة، يشير ميتشيل (Mitchell, 2000) إلى بعض المفكرين (كسمير أمين، وفالرشتاين، وفرانك) الذين يثيرون الأسئلة حول حقيقة كون أصول الحادثة الرأسمالية متجذرة في الغرب، إذ يرى هؤلاء المفكرون تطور الحادثة الرأسمالية سيرورة عالمية حدثت كنتيجة لعمليات متعددة، كالعبودية، أو التبادل التجاري بين ما يُعرف بالغرب واللا غرب. ويضيف ميتشيل، مستعيناً بأفكار إدوارد سعيد حول الاستشراق، أن الغرب نفسه وهويته الثقافية قد بُنِيَ من خلال الاستعمار في سياق حاجة المستعمرين الأوروبيين إلى فصل أنفسهم، عرقياً وجنسياً وثقافياً وطبقياً، عن الشعوب المستعمرة. وفي محاولة تحدي رواية الحادثة، لا يكفي ميتشيل بالتساؤل حول موقعها المكاني، بل يثير الأسئلة أيضاً حول مكوناتها الزماني؛ فالحادثة لا تتميز بالمركزية الأوروبية مكانياً فقط، بل إن تاريخ الغرب يُدرِك كالزمن التاريخي المركزي الذي تستقي منه كلُّ التواريخ الأخرى دلالاتها، حيث يجري تنظيم الأحداث العالمية المتعددة من خلال الرواية الغربية التي يجري بناؤها حول التقدّم والتطور، سواء أكان ذلك تطور المنطق والعقلانية، أم التنوير، أم السيطرة على الطبيعة. إن اختزال التواريخ المحليّة المختلفة وتمثيلها من خلال تاريخ الغرب يمنح الحادثة الرأسمالية تناسقاً داخلياً وهمياً. ولتحدي هذا التناسق الداخلي ونفيه، لا بدّ من كشف الجذور المتعددة والمختلفة لما يجري شمله وتوحيده ضمن مفاهيم الرأسمالية أو الحادثة (Mitchell, 2000).<sup>3</sup>

تقوم الحادثة بدور البطولة كذلك، في مجال التنمية، من خلال ما يسمّى بمدرسة التحديث. بدأت أفكار مدرسة التحديث بالانتشار بعد الحرب العالمية الثانية، تلك الفترة التي ترافقت مع انتشار حركات التحرر من الاستعمار، والتي قادت لاحقاً غالبية الدول المستعمرة نحو الاستقلال والخضوع

مفهوماً آخر متعاضداً مع مفهوم الحادثة؛ هو مفهوم الفردانية، حيث يجري إدراك الحادثة بالقوة التي حرّرت الفرد من سيطرة العادات والتقاليد والدين، وأطلقت العنان لحرية الفرد وخياراته، وهي التي أسّست كذلك للفصل بين المجال العام والمجال الخاص - وعلى وجه التحديد بين الدولة والسوق -، لتغدو المعرفة - بما فيها العلوم الاجتماعية - تحدّد الفرق بين الغرب وسائر العالم بكون الفرد في الغرب متحرراً ويتبع خياراته العقلانية. تحاول النظريات الاجتماعية تحليل وضع المجتمعات «التقليدية» منطلقاً من المركزية الأوروبية، وتحاول هذه النظريات صبغ نفسها بالشرعية من خلال ادعاء قدرتها على بناء لغة عالمية بالرغم من كون هذه اللغة منغمسة في الحادثة الأوروبية، وبالتالي أصبحت العلوم الاجتماعية غير قادرة على فهم منطوق آخر، سوى منطوق الحادثة التي هي ذاتها كظاهرة جرى فهمها من خلال المنطق الغربي (Mbembe, 2001).

قام العديد من المفكرين والمفكرات بتوجيه النقد لمفاهيم عديدة مؤسّسة للعلوم الاجتماعية الحديثة، كالطبقة والقومية والدولة والعرق والنوع الاجتماعي والثقافة<sup>2</sup>. وينتقد ميتشيل، بالإضافة إلى ذلك، الثنائيات التي أنتجها ويعيد إنتاجها العالم الحديث والعلوم الاجتماعية الحديثة، ولا سيما الثنائيات بين الأشياء والأفكار، والطبيعة والثقافة، والواقع وتمثيلات، والإنسان والكائنات الأخرى (Mitchell, 2002). والأهم من ذلك أن ميتشيل يقوم بفحص السيرورة التي تُسبب من خلالها المنطق والعقلانية لكل من الحادثة والسوق والقانون والعلوم والتكنولوجيا والرأسمالية، وكذلك كيف جرى إدراك العنف كحالة مناقضة للمنطق المنسوب إلى المفاهيم أعلاه، في حين أن العنف شكّل الظروف التي وفّرت الإمكانية للحديث عن تقدّم المنطق والحادثة، وعن انتشار التنمية والرأسمالية، أو عن أفعال الإنسان التي تنتصر على الطبيعة.

2. انظر/ي مقالة اسماعيل ناشف التي تشتمل على عملية تعقّب لأزمات المعرفة الحداثيّة وسبل الانعتاق منها في سياق فلسطين كفضاء معرفي متميز. اسماعيل الناشف (2006). «فتح الإيستيم». مدى آخر، العدد الثاني، حيفا: مدى الكرمل.

3. انظر/ي أيضاً مساهمة شاكرا ابارتي في نقد المركزية الأوروبية في Chakrabarty, D., (2000). *Provincializing Europe, postcolonial thought and historical difference*. Delhi: Oxford University Press.

لدخول الحدائنة والخروج منها، مما يوقر إمكانية للتمكين الثقافي خلال هذه العملية (Cancilini, 1995).

تعكس الأفكار الأخيرة آلية للتعامل مع مفهوم الحدائنة، إذ يأخذ هذا الشكل من التعامل خصوصية أمريكا اللاتينية في الاعتبار. ونجد أن أفكار مدرسة التبعية قد جاءت معبرة عن الواقع السياسي والاقتصادي والثقافي الخاص، وفي ذات الوقت قد أفرزت تحركاً سياسياً وفهماً ثقافياً يحاول تحدي هيمنة الحدائنة - وإن كان لا يتجاهلها-. والنقطة الأساسية التي تهتمنا هنا تكمن في احتمالات إنتاج معرفة محلية تعكس الواقع المحلي بتعدياته وتشابكاته العالمية، وتفرز أنماطاً من المعرفة والفعل السياسي الذي يتحدى الهيمنة الغربية وعنوانها الحدائني.

### النساء والحدائنة

المنطق التحليلي ذاته الذي يقرن الغرب بالتقدم والتحديث، ويقرن الشرق بالركود والتقليد، يقوم كذلك بصياغة الجدل حول حياة النساء في مجتمعات العالم الثالث (عالم الأغلبية)، حيث يفسر هذا التوجه تحرر النساء بتغلغل الأفكار الغربية التي أحدثت تحولاً تدريجياً على المجتمعات التقليدية. يرى البعض، من أمثال تاكر، أن هذا الوصف قد ينطبق على بعض نساء الطبقة العليا المثقفة المتأثرة بالأفكار الغربية، لكن هذا التحليل يقوم بتعميم تاريخ جزء صغير من النساء على عامة النساء، ويؤدي إلى تحديد البحث التاريخي في فئة المثقفين وفي المجال الثقافي ويتجاهل البنى الاقتصادية والتركيز على ويأتي تجاهل البنى الاقتصادية والتركيز على الثقافة في إطار محاولة المستعمرين تبرير سيطرتهم، من خلال ربط الموقع المتدني للنساء بالتقليد، وتوصيف النساء كضحايا التقليد اللواتي يحتجن إلى حدائنة المستعمرين لإنقاذهن (Tucker, 1985).

تشير حاتم إلى أن منظري حقل العلوم السياسية

مجدداً إلى أشكال جديدة من الاستعمار والتبعية الاقتصادية والسياسية والمعرفية. تركزت فكرة التنمية أساساً في جهودها لدمج بقية العالم في الحدائنة الاقتصادية، كما انعكست في الأنظمة الاقتصادية الغربية التي ترى الرأسمالية الطريق الأمثل لإحداث تطور اقتصادي في دول ما بعد الاستعمار. لقد أدرك التطور الاقتصادي صيرورة خطية تتضمن مشاريع كالتصنيع وبناء بنية تحتية حديثة. ولم تنحصر أفكار مدرسة التحديث في ضرورة تحديث المجال الاقتصادي (رغم التركيز الكبير عليه منذ البدايات)، بل تجاوزت ذلك إلى تحديث المؤسسات التقليدية والمواقف الاجتماعية التقليدية.

لقد جاء نقد مدرسة التحديث منذ أواخر خمسينيات القرن الماضي (Baran, 1957)، من خلال الادعاءات التي طورها منظرو مدرسة التبعية، من أمثال فرانك وأمين (Frank, 1969; Amin, 1974)، والتي تفيد أن المشكلة الحقيقية لا تكمن في البنى التحتية التقليدية للمجتمعات غير الحديثة، بل في سلب الدول الحديثة للفائض من هذه الدول على شكل ربح، بدلاً من إعادة استثماره في الاقتصاد المحلي. لقد جاءت ادعاءات مدرسة التبعية، التي طورها - في الأساس - مفكرون من أمريكا اللاتينية، ردًا على خطاب وممارسات مدرسة التحديث. وقد شكّلت هذه الأفكار انعكاساً ومحققاً للممارسات السياسية المعادية للتبعية (الوجه الجديد للاستعمار) - كالثورة الكوبية (Young, 2001).

وقد ترافق تحدي التبعية الاقتصادية والسياسية في أمريكا اللاتينية مع تحدي التبعية الثقافية ومحاولة تطوير أشكال من الاستقلال الثقافي من خلال مفاهيم مثل «الثقافة العابرة»<sup>4</sup> و «التهجين»<sup>5</sup>. يفسر أورتيث مفهوم «الثقافة العابرة» بأنه ليس مجرد اتصال ثقافي يؤدي إلى توليف ثقافي، بل هو لحظة الانتقال من ثقافة إلى أخرى، بحيث تتميز هذه اللحظة بالارتباك وبتصادم عدة ثقافات مختلفة (Ortiz, 1995). أما مفهوم «التهجين»، فيحلل ويوقر إستراتيجيات

4. «الثقافة العابرة» هي ترجمة لمفهوم Transculturation

5. «التهجين» هي ترجمة لمفهوم Hybridity



في السياق الفلسطيني، جرى تصوير الفلسطينيين ووصمهم بـ «التقليدية»، بغية تأكيد الحاجة إلى «تحديثهم» من قِبَل المستعمرين البريطانيين ولاحقاً الصهيونيين. وقد تبنت هذه النظرة النخبُ الفلسطينية الوطنية التي حاولت «تحديث الفلاحين التقليديين» (Jad, 2004). فمنذ القرن التاسع عشر، قام المستشرقون الذين زاروا فلسطين بصياغة صورة لا تاريخية عن الفلاحين الفلسطينيين من خلال نعتهم بـ «التقليديين» و «ما قبل حداثيين» و «غير منتجين». وقد شكّلت هذه الصورة أداة مهمة استخدمها المستعمرون الصهيونيون من خلال ادّعاءاتهم أنّهم قاموا بـ «تحديث» هؤلاء الفلاحين الفلسطينيين في إطار الفرص التي وقروها لهم بعد إقامة الدولة اليهودية. في هذا الصدد، تستعرض رايدر كتابات بعض الباحثين الإسرائيليين، من أمثال لاندوا وبن رافائيل، التي تصف حياة الفلاحين الفلسطينيين من خلال مفاهيم ثابتة كالحمولة، والبطيركية، والواسطة المرتبطة بوظيفة المختار، والطاعة، ودونية النساء (Reiker, 1992)، وتؤكد هذه الدراسات الدور التنويري لدولة إسرائيل من خلال تحديث البنى التقليدية للفلاحين الفلسطينيين الذين أصبحوا مواطنين في الدولة، عبر وسائل متعددة كسيادة القانون، ومفهوم المواطنة الفردية، والعمل المأجور، وتوفير فرص التعليم للنساء.

تتبني هذه الكتابات ومثيلاتها ثنائية التقليد/الحداثة، وتقوم ببناء العائلة الفلاحية كموضوع ثابت وجامد للمعرفة، دون الأخذ في الاعتبار السياق التاريخي لتطور بنى كالحمولة. كذلك تتجاهل هذه الكتابات التنوع والتركيب في حياة الفلاحين، فتصوير المجتمع الفلاحي الفلسطيني من خلال مفهوم «التقليد» المطلق يتجاهل التكوين الاقتصادي والاجتماعي لواقعهم وتأثير الاستعمار المتلاحق لفلسطين على نمط حياة الفلسطينيين عموماً، والفلاحين منهم على وجه التحديد.

وفي محاولة فهم واقع النساء الفلسطينيات الريفيات (ميعاري، 2005)، نجد أنّ التحولات التي طرأت على البنية الزراعية في فلسطين في فترة

قد قاموا بالتنظير حول دول الشرق الأوسط عموماً من خلال مفاهيم الحداثة والتقليد والصراع ما بين المفهومين (Hatem, 2000). وبالتالي استمر خطاب الحداثة في تشكيل الرواية الرئيسية، وقد عُزّي عدم مساواة النوع الاجتماعي في الأسر التقليدية، وإعاقة وصول النساء إلى المجال العام، إلى التقاليد الثقافية والقبلية والدينية وعدم القدرة المفترضة للأسر التقليدية على إزالة تدني شأن النساء. وفي سياق هذه الرواية، أعطى خطاب الحداثة للدولة ومؤسساتها، كالتعليم والقانون والعمل والاقتصاد، دوراً إيجابياً لتغيير علاقات القوة الجندرية في أسر الشرق الأوسط ومجتمعاته، وقدمت الروايات المختلفة التي صاغتها دراسات نساء الشرق الأوسط، عن تطور الدولة القومية الحديثة، تعريفات وتوجهات مختلفة للحداثة. لكن معظم الروايات اتفقت حول كون المساواة في علاقات القوة وأدوار النوع الاجتماعي قد تولدت نتيجة تحديث المجتمع عامة. وتعمل حاتم على نقد الروايات المختلفة في دراسات النساء في الشرق الأوسط، وذلك أنّ جميع هذه الروايات كانت منشغلة في تطور الحداثة في المنطقة، والتي شملت تطور الاقتصاد الرأسمالي وبنى الدولة والأيديولوجيات والإستراتيجيات الحديثة، وتأثيرها على العلاقات والأدوار الجندرية، وفي سياق هذا الخطاب، كان يُنظر إلى الدولة بوصفها وكيلاً للحداثة. ترى حاتم أنّ جميع الدراسات والروايات التي تنطلق من خطاب الحداثة لم تستطع تطوير نقد للحداثة ذاتها. وهي تعزو ذلك إلى هيمنة خطاب الحداثة الذي لم يُثر الأسئلة حول مدى تقدمية الحداثة ذاتها. تؤكد أبو لغد على أهميّة فهم سياسات الحداثة، ودراسة الأفكار والممارسات التي توصف بأنها حداثيّة وتقدميّة، والتي نُشرت في المستعمرات الأوروبية، أو تبنتها النخبُ المحليّة الناشئة (خطابات المصلحين والمصلحات كانت مليئة بالأحاديث عن «المرأة الجديدة»)، لكون هذه الأفكار والممارسات تحمل في طياتها أنماطاً من تحرير النساء، بالإضافة إلى أنماط جديدة من السيطرة الاجتماعية عليهنّ (Abu-Lughod, 1998).

والفلاحات من الأراضي التي اعتادوا فلاحتها لعقود طويلة في حين عرض هذا القانون نفسه كنفويض للعشوائية وتسلب الدولة وتخلف أنماط الملكية المشاعية (Mitchell, 2002). يُظهر هذا المثال الممارسات العملية لبعض المفاهيم الخاصة بالحدائنة، وتحديداً الأنظمة القانونية الحديثة كما تنعكس وتتفاعل مع الواقع المعيش، وكذا العنف الذي تضمّنته هذه الممارسات، وهو ما يثير التساؤل حول تعريف مفهوم الحدائنة ذاته، وإن كان في الإمكان فهم الحدائنة كمفهوم مطلق وعالمي دون فهم تمفصلاته وانعكاساته العنيفة في الواقع المعيش.

### خاتمة- نحو فتح النقاش بأفق آخر

تصوب هذه المداخلة إلى توجيه دعوة للمهتمين والمهتمات بحال المجتمع الفلسطيني، بمكوناته المتنوعة والمتناقضة، لإعادة النظر في الخطاب الاشتقاقي<sup>5</sup> المهيم (Chatterjee, 1986)، والذي يتبنى ادعاءات الحدائنة كما تصوّر ذاتها بكونها صيرورة عالمية ومطلقة وحتمية وتقدمية تعمل لصالح الجميع. وعلى وجه التحديد، يُشكّل هذا النصّ عموماً- محاولة لإثارة الأسئلة حول الادعاء القائل إنّ تحديث بنية المجتمع الفلسطيني وتحويل بنيته من بنية تقليدية إلى بنية حديثة يؤديان إلى تحرر فئات المجتمع المختلفة- بمن فيها النساء. تُشكّل الحالة الفلسطينية نموذجاً مميّزاً (الناشف، 2005)، فقد تعرّض المجتمع الفلسطيني إلى استعمارات متلاحقة، كان آخرها استعمار استيطانيّ إحلاليّ تكثفت ممارساته عام 1948. وقد ترافق الاستعمار المتلاحق لفلسطين مع ممارسات سيطرة عسكرية وممارسات سيطرة حديثة، وتجلّت بعض جوانب هذه الحدائنة عنوة، باستخدام العنف الذي دمر النسيج المحليّ للفلسطينيين واستلب مصادره. إنّ ليس في الإمكان الحديث عن الحدائنة في فلسطين بشكل مطلق، بل يجب مَوْضعة الحدائنة في سياق ممارساتها العنيفة وتمفصلها مع السياق المحليّ. ولذا، من المهمّ إعادة النظر في الخطاب الوطنيّ

الاستعمار البريطانيّ (والتي بدأت في نهاية الحكم العثمانيّ مع «عصر التنظيمات»)، قد جاءت متساوقة مع أفكار التحديث والتقدم، من خلال تحديث البنى الاقتصادية والقانونية، والبنية التحتية، وتحويل نمط الزراعة القائم على الملكية المشتركة للأرض (المشاعب) والموجّه للاكتفاء الذاتي، إلى نمط قائم على الملكية الفردية الخاصة وموجّه للتصدير. لقد أثّرت هذه التحوّلات على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للفلاحين، وعلى أدوار النساء الإنتاجية وحقهنّ في استخدام الأرض (Tinker, 1999). وتتساوق التحوّلات على أدوار النساء الفلسطينيات الريفيات، وحقهنّ في استخدام الأرض، مع ما يرد في الأدبيات العالمية حول العلاقات الجندرية في الاقتصاديات الزراعية والتي تشير إلى أنّ التحوّل من الإنتاج للاكتفاء الذاتي إلى الإنتاج الموجه للسوق، وارتباط ذلك بقيمة أعلى للعمل الإنتاجي مقابل إعادة الإنتاج، يؤثّر سلباً على أدوار وحقوق النساء. أمّا في ما يتعلق بأشكال عقود الأراضي، فإنّه في ظلّ القوانين التقليدية التي نظمت استخدام الأراضي الزراعية (في سياق فلسطين- الأراضي المشاع)، توافرت للنساء إمكانية وصول للأرض واستخدامها من خلال الآباء والأزواج، وكوّن ذلك شكلاً من أشكال حقوق النساء كمزارعات للاكتفاء الذاتي. أمّا القوانين الحديثة والتي استوجبت تسجيل الأراضي كملكية خاصة، فقد أثّرت على حقوق النساء التقليدية في استخدام الأرض، حيث تشير الأدبيات حول الوضع في أفريقيا إلى أنّ التغيّرات التي حدثت باتجاه أنظمة زراعية حديثة أثّرت على أدوار النساء، وساهمت في تحويلهنّ من منتجات إلى ربّات بيوت (Rogers, 1980).

نجد، إنّ القانون في منظومة الحدائنة والذي يدّعي كونه مطلقاً وعالمياً قد شكّل- في سياق فلسطين وغيرها من الدول- وسيلة لتجريد الفلاحين والفلاحات من حقهم في استخدام الأرض. فقانون الملكية أو حق الفرد في الملكية كان مفصلياً كطريقة للاستيلاء على الأراضي وممارسة العنف والإكراه لطرد الفلاحين

5. Chatterjee, P. (1986). *Nationalist thought and the colonial world: A derivative discourse?* Tokyo: Zed books.

يشير تشاترجي في هذه المقالة إلى كون الخطاب الوطنيّ مشتقاً من الخطاب الاستعماريّ.



وللتوضيح، ليس المقصود هنا الاحتفاء بالتقليد وتمجيده؛ فمهمة سبّر غور مفهوم التقليد ودلالاته وجوانبه، الإيجابية وتلك القامعة، لا تقل أهمية عن مهمة كشف البعد الوهمي المطلق والتقدمي للحدثة، لكن المقصود هو محاولة فهم وإعطاء شرعية لأنماط حياتية وجودية مادية ومعرفية مختلفة عن الأنماط الوجودية والمعرفية التي يرسمها ويحددها خطاب الحدثة هذا، بالإضافة إلى أهمية التشكيك في معنى الحدثة والرواية التي ترويها عن نفسها والتي يتبناها الكثيرون.

المهيمن والداعي إلى تحديث المجتمع الفلسطيني التقليدي ليلحق ركب التطور والتقدم. ويبقى التحدي الأساسي في احتمال تطوير رؤية سياسية وثقافية ومعرفية سياقية ومحلية، قادرة على فهم النسيج الفلسطيني في سياق تاريخي استعماري حرّم الكثيرين من الفلسطينيين نمط حياة إنتاجيًا وثقافيًا فلاحيًا، وفرض عليهم نمطًا إنتاجيًا استغلاليًا حين حوّل فلاحيه إلى عمال في السوق الإسرائيلية، وسلب وسيلة إنتاجهم الأساسية (وهي الأرض)، وفرض عليهم لاحقًا المواطنة في إطار دولة مستعمرة «حديثّة».

## المراجع

- Jad, H. (2004). *Women at the cross-roads: The Palestinian women's movement between nationalism, secularism and Islamism* (Doctoral dissertation, University of London, 2004).
- Jameson, F. (1991). *Postmodernism or, the cultural logic of late capitalism*. Durham: Duke University Press.
- Klages, M. (2003). Postmodernism. Retrieved 1/6/2007 from: <http://www.colorado.edu/English/courses/ENGL2012Klages/pomo.html>
- Liotard, J. F. (1984). *The postmodern condition: A report on knowledge*. Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Mbembe, A. (2001). *On the postcolony*. Los Angeles: University of California Press.
- Mitchell, T. (2000). The stage of modernity. In T. Mitchell (Ed.), *Questions of Modernity* (1-34). Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Mitchell, T. (2002). *Rule of experts: Egypt, techno-politics, modernity*. Los Angeles: University of California Press.
- Mouffe, C. (2005). *On the political*. London: Routledge.
- Ortiz, F. (1995). *Cuban counterpoint: Tobacco and sugar*. (H. Onis, Trans.). Durham: Duke University Press. (Original work published 1995).
- Reiker, M. (1992). Constructing Palestinian subalternity in the Galilee: Reflections on representations of the Palestinian peasantry. *Inscriptions*, 6. Retrieved 15/5/2007 from: [http://www.ucsc.edu/Cultstudies/PUBS/Inscriptions/vol\\_6/Reiker.html](http://www.ucsc.edu/Cultstudies/PUBS/Inscriptions/vol_6/Reiker.html)
- Rogers, B. (1980). *The domestication of women-discrimination in developing societies*. London: Routledge.
- Tinker, I. (1999). Women's empowerment through rights to house and land. In I. Tinker & G. Summerfield (Eds.), *Women's rights to house and land: China, Laos, Vietnam* (9-26). London: Lynne Rienner Publishers.
- Tucker, J. (1985). *Women in nineteenth-century Egypt*. England: Cambridge University Press.
- Young, R. (2001). *Postcolonialism: An historical introduction*. Oxford: Blackwell Publishing.
- ثريا التركي، هدى زريق (1995). «تغير القيم في العائلة العربية». *المستقبل العربي*، السنة الثامنة عشرة، العدد 200. ص 76-116.
- لينا ميعاري (2005). *أدوار النساء الفلسطينيات الريفيات ببعديها الاقتصادي والثقافي بين الأعوام 1960-1930* «قرية البروة نموذجا». (رسالة ماجستير)، جامعة بيرزيت: قسم المرأة والقانون والتنمية.
- اسماعيل الناشف (2006). «فتح الإيستيم». *مدى آخر*، العدد الثاني، حيفا: مدى الكرمل.
- Abu-Lughod, L. (1998). Introduction. In L. Abu-Lughod (Ed.), *Remaking women, feminism and modernity in the Middle East* (3-31). Princeton: Princeton University Press.
- Amin, S. (1974). *Accumulation on a world scale: A critique of the theory of development*. New York: Monthly Review Press.
- Canclini, G. (1995). *Hybrid cultures: Strategies for entering and leaving modernity*. (C. L. Chiappari & S. L. Lopez, Trans.). Minneapolis: University of Minnesota Press. (Original work published 1995).
- Chakrabarty, D. (2000). *Provincializing Europe, postcolonial thought and historical difference*. Dehli: Oxford University Press.
- Chatterjee, P. (1986). *Nationalist thought and the colonial world: A derivative discourse?* Tokyo: Zed books.
- Baran, P. (1957). *The political economy of growth*. New York: Monthly Review Press.
- De Certeau, M. (1988). *The writing of history*. New York: Columbia University Press.
- Foucault, M. (1967). *Madness and civilization: A history of insanity in the age of reason*. New York: Vintage Books.
- Frank, G. (1969). *Capitalism and underdevelopment in Latin America: Historical studies of Chile and Brazil*. New York: Monthly Review Press.
- Habermas, J. (1981). *Modernity, an incomplete project*. In T. Docherty (Ed.), *Postmodernism, a reader* (98-110). New York: Columbia University Press.
- Hatem, M. (2000). *Modernization, the state, and the family in Middle East women's studies*. In M. Meriwether & J. Tucker (Eds.), *Social history of women and gender in the modern Middle East* (63-87). Colorado: Westview Press.